مهمّات مشبوهة في الديار المقدّسة (٥)

حسن السعيد

إلى المدينة المنورة

رغم انتهاء موسم الحج، إلّا أنّ بيركهارت أُجبر على البقاء في مكّة المكرمة، بسبب الوضع المتقلب في البلاد. وعندما غادر هذا الرحالة السويسري مكّة متوجهاً إلى المدينة المنورة، التي ظلّت مفتوحة للزائرين، حتى منع الوهابيون زيارتها.. لكن هذا المنع أُلغي نتيجة لحملة محمد علي باشا. وكان بيركهارت أوّل أُوروبي يصل إلى المدينة المنورة، بعد الخطر الوهابي[١].

في منتصف كانون الثاني (يناير) ١٨١٥، غادر بيركهارت مكة المكرمة على ظهر جمل، في رحلة استغرقت حوالى اسبوعين[٢]، وفي صباح اليوم الثامن والعشرين، من الشهر نفسه، يكون قد وصل المدينة المنورة. ومن سوء حظه أنه وقع مريضاً بمرض البرداء (الملاريا)، حتى أصابه اليأس من نفسه، وظنّ أنه سيقضي نحبه في المدينة فيقبر فيها. لكنه مع ذلك استطاع أن يرى أشياء كثيرة من أحوال المدينة ومافيها، بحيث استطاع أن يكتب عدّة فصول عنها، في الجزء الثاني من رحلته

(الصفحة: ١٣٨ ـ ٢٩٢)[٣].

بقي في المدينة المنورة ثلاثة أشهر، أمضى منها ثمانية أسابيع في الفراش؛ لذا كتب عن المدينة بطريقة أقل شموليّة من كتاباته عن مكّة[٤]، بل إنّ وصفه للمدينة المنورة ناقص وهزيل، بالنسبة لوصفه لمكّة وجدّة والطائف. كما يقول «برينث»، وهو يعتمد في كثير ممّا كتبه عن المدينة على السماع، وماجمعه من الأخبار، التي التقطها بدقة وأناة، وهي تأتي بمفهوم جديد بالنسبة للقارئ الاوروبي، ولكن تلك المعلومات ليست مؤسسة على ملاحظاته الشخصية وتجاربه، ومع ذلك فقد كان يتوخى الحقيقة ببرود في أحكامه[٥].

وفي البداية، يقول بيركهارت: إنّ القافلة التي جاء ضمنها من مكّة المكرمة، نزلت في الساحة الكبرى الكائنة في ضاحية المدينة، ووجد له منزلاً بواسطة المزوّر، وأخذ كالعادة لزيارة الحرم الشريف، فلاحظ أنّ مراسيم الزيارة أقصر وأسهل من مراسيم الحج ومناسكه بطبيعة الحال، لكنه لاحظ أنّ المدينة كان قد احتلها طوسون باشا مؤخراً، وطرد منها الوهابيين، فنفر عنها البدو وأصحاب الإبل، الذين كانوا يأتون إليها بالأقوات والمؤن. فعزّ فيها الطعام، ولاحظ وخامة الجو فيها كذلك، وطعم الماء المقيت.

ويأخذ بيركهارت بوصف المدينة وموقعها الطبيعي... فيقول: إنه وجد أسوارها عامرةً، بحيث تعدها للدفاع على أحسن وجه بالنسبة لمقاييس تلك الجهات؛ ولذلك كانت المدينة المعقل الرئيسي في الحجاز. وكان السور قد بُني حولها سنة ٣٦٠ للهجرة، ثمّ أُعيد بناؤه بعد ذلك في أوقات مختلفة أخصّها سنة ٩٠٠ للهجرة، لكنّ الخندق كان قد مُدّد حولها سنة ٧٥١. على أنّ بناءه، بشكله في أوائل القرن التاسع عشر، كان قد تمّ بأمر من السلطان سليمان القانوني، في نهاية القرن السادس عشر، وهناك أبواب ثلاثة

جميلة فيه: الباب المصري في الجهة الجنوبية، وهو مع باب الفتوح في القاهرة أجمل الأبواب التي شاهدها بيركهارت في المدن الشرقية، والباب الشامي في الجهة الشمالية، وباب الجمعة في الجهة الشرقية، وهناك باب يُسمّى «الباب الصغير»، في الجهة الجنوبية، كان الوهابيون قد أغلقوه عندما احتلوا المدينة قبل سنوات.

ويقول بيركهارت: إنه شاهد المدينة مبنيّةً بالحجر كلّها، وتتألف بيوتها من طابقين بوجه عام ومن سطوح منبسطة.. أمّا الحارات فيورد أسماءها.. لينتقل إلى الحديث عن ضواحي المدينة المنورة، وأهمّ الحارات في تلك الضواحي، والتي لا تخلو من الأماكن التأريخية، فمثلاً هناك مسجدان في المناخة، أحدهما يسمى «مسجد علي»، ويُقال: إنه قديم منذ صدر الإسلام، لكن بنايته القائمة كانت قد شيِّدت في ٨٧٦، والمنقول أنّ النبيّ عليه السلام كثيراً ما كان يصلي فيه. ويُسمى المسجد الآخر «جامع عمر» وقد أُلحقت به مدرسة عامة كانت تستخدم بنايتها مخزناً للذخيرة وملجأ لكثير من الجنود.

وبعد أن يصف بيركهارت أشياء أُخرى في المدينة، وأهمّها مشروع الماء فيها، يقول: إنّ الجوهرة الغالية التي تجعل المدينة في صفّ مكّة من حيث الأهمية، لا بل وتفضلها عليها، في نظر بعض الناس مثل أتباع مالك بن أنس، هو المسجد الأكبر الذي يضمّ في داخله قبر النبيّ محمدﷺ، وهو مثل جامع مكّة يسمى «الحرم»، ويقع هذا المسجد في الطرف الشرقي من البلدة وليس في وسطها. أمّا أبعاده فهي أصغر من أبعاد الحرم المكي، إذ يبلغ طوله مئة وخمساً وستين خطوةً، ويبلغ عرضه مئة وثلاثين، لكنه مشيّد على الطراز نفسه تقريباً.

وبعد أن يصف بيركهارت سائر أجزاء الحرم، والضريح المطهّر ومايوجد حوله من القبور الأُخرى، يقول: إنّ نفائس الحجاز كانت تحفظ في السابق حول هذه القبور إمّا معلقة

بحبال من حرير يمتد في داخل المبنى، أو مودعة في صناديق خاصة موضوعة على الأرض. ويمكن أن يذكر من هذه على الأخص نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي تعود إلى الخليفة عثمان بن عفان، ويُقال: إنّها لا تزال موجودة في المدينة..

ثمّ يتطرق إلى ذكر حصار الوهابيين للمدينة، وإلى أنّ شيئاً كثيراً من هذه النفائس، ولا سيما الأوعية الذهبية منها، استولى عليها رؤساء البلدة، بحجة توزيعها على الفقراء، لكنهم تقاسموها فيما بينهم بعد ذلك. وحينما دخل الأمير سعود الوهابي إلى المدينة، واستولى عليها، دخل الحجرة النبوية نفسها، ووصل إلى ماوراء الستائر، فوضع يده على جميع النفائس التي وجدها هناك، وقد باع قسماً منها إلى شريف مكة، وحمل الباقي إلى الدرعية معه. ومن الأعلاق النفيسة التي أخذها، وهي أغلى من أي شيء آخر، النجمة البراقة المتلألئة المطعمة بالماس واللؤلؤ، التي كانت معلقة فوق القبر المقدّس مباشرة، وقد كانت تسمى «الكوكب الدري»، وقد كانت تودع، في هذا المكان، جميع أنواع الأوعية والأواني الثمينة المطعمة بالجواهر، والأقراط، والأساور، والقلائد، وسائر النفائس التي كانت تُهدىٰ من جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية، ويأتي بها الحجاج في أثناء زيارتهم للمدينة. ولا شكّ أنّ ذلك كلّه كان يؤلف مجموعة ذات قيمة غير يسيرة، لكنها لا تكاد تُقدّر بثمن. فقد قدّر الشريف غالب مااشتراه من الامير سعود بمائة ألف دولار.. كما يُقال: إنّ ماأخذه الأمير سعود معه يتألف غالباً من اللؤلؤ والمرجان، وإنّ قيمته تساوي ماباعه إلى الشريف غالب، وربما يبلغ مجموع كلّ ماوجد في قيمته حوالى ثلاثمائة ألف دولار[٦].

● في رحاب المسجد النبوي الشريف

وهناك من الأسباب مايجعلنا

نعتقد ـ والكلام مايزال لبيركهارت ـ بأنّ هدايا المسلمين التي تجمعت في هذه البقعة، عبر القرون والأجيال، كانت تبلغ أكثر من هذا بكثير. ومن المحتمل جدّاً أن يكون حكّام المدينة الذين كانوا مستقلين، في كثير من الأحيان، وسدنة الضريح المقدّس أنفسهم، قد أخذوا الشيء الكثير مما كان يُهدىٰ بين حين وآخر، كما فعل علماء مكّة قبل ثلاثمئة سنة، حينما سرقوا مصابيح الذهب العائدة للكعبة، وأخذوها إلى الخارج بين طيّات أردانهم، على مايقول المؤرخ قطب الدين، وقد أخذ طوسون باشا، عند مجيئه المدينة، يفتّش عن الأواني الذهبية التي بيعت في المدينة، فوجد قسماً منها وابتاعه من مالكيه بعشرة آلاف دولار، ثمّ أعاده إلى مكانه.

ثمّ يذكر بيركهارت أنّ فوق «الحجرة» قبة جميلة عالية الذرى، ترتفع فوق القباب الأُخرى، التي تكوّن السطح الممتد من فوق الأعمدة، وترى من مسافة بعيدة في المدينة. وحالما تلوح للزائرين من بعيد يبدأون بالصلاة وقراءة الأدعية. وتغطى بالرصاص، كما يعلوها هي كرة غير صغيرة بالحجم وهلال كبير، وكلاهما يتوهج بذهبه. وقد صنعت الكرة والهلال في استانبول، بأمر من السلطان سليمان القانوني، أمّا القبة والحرم بأجمعه فقد بناهُ قايتباي سلطان مصر مابين سنتي ٨٨١ و ٨٩٢هـ.

وكان الوهابيون قد أغراهم بتهديم القبة الكبيرة الذهب اللماع، وتعاليمهم القاضية بتهديم القباب المقامة فوق القبور جميعاً، بما فيها قبة الرسول الأعظم، فحاولوا ذلك وابتغوا رفع الكرة والهلال، لكن متانة البناء، ووجود الغطاء الرصاص، جعل من الصعب عليهم تنفيذ مايريدون. ثمّ سقط اثنان منهم، بعد أن تزحلقا من فوق السطح الأملس، فتركت المحاولة وعُدّ ذلك من معجزات النبي.

وهناك على مقربة من ستائر الحجرة، وفي داخل محيطها قبر «ستّنا

فاطمة» مغطّى بغطاء أسود من الحرير المطرّز. وهناك بعض الاختلافات في الرأي، حول مدفن الزهراء البتول في هذه البقعة أو في مقبرة البقيع. ولذلك يزورها الزوّار في هذين المكانين معاً.

وبعد أن يشرح بيركهارت الكيفية التي يزور بها الزوار الحرم الشريف، يبدأ بوصف الصحن الأوسط «الذي يوجد بالقرب منه سياج خشبي غير مرتفع، في داخله نخلات تعتبر مقدسة؛ لأنها على مايُقال كانت قد زرعتها الزهراء عليها السلام، وفي جانب النخلات بئر تسمى «بئر النبي»، لكن ماءها عكر؛ ولذلك لا يتمتع بشهرة قدسية.. وحينما يأتي على ذكر الاضاءة والشموع يذكر أنّ زوجة الخديوي محمد علي باشا، التي كانت يومذاك في المدينة، جاءت بكميات كبيرة من الشمع، وأهدتها إلى الحرم الشريف[٧].

ثمّ ينتقل بيركهارت إلى وصف دقيق لأبواب الحرم الشريف الأربعة: (السلام، الرحمة، الجبريل، النساء)، وجميع هذه الأبواب تغلق بعد الغروب بثلاث ساعات يومياً، ولا تفتح إلّا قبل الفجر بساعة. لكن الذين يرغبون في الصلاة داخل المسجد، طوال الليل، يمكنهم أن يستحصلوا الرخصة لذلك من الآغا المكلف بالخفارة.. أمّا في أيام رمضان، فيبقى الحرم مفتوحاً طوال الليل.

وتعهد مهمة أمن المسجد النبوي، وغسل الحجرة، وسائر أجزاء المبنى جميعاً، وإنارة الحرم ومأأشبه، إلى خمسين آغا من الأغوات الخصيان، الذين توجد منظمة خاصة لهم، تشبه المنظمة الموجودة في بيت الله الحرام في مكّة، لكن هؤلاء تُعطى لهم أهمية كبيرة في المدينة، فتجدهم يلبسون أحسن، ويستعملون الشال الكشميري، وأفخر أقمشة الهند الحريرية، وحينما يمرون بالسوق يسارع الجميع إلى تقبيل أيديهم، ولذلك يمارسون نفوذاً غير يسير في شؤون البلدة الداخلية.. ويسمى رئيس هؤلاء الأغوات «شيخ

الحرم»، وهو رئيس الجامع بأسره أيضاً، والشخصية الأُولى في المدينة عادة.. وقد كان شيخ الحرم الذي شاهده بيركهارت يومذاك «قزلر أغاسي» في عهد السلطان سليم... وقد شوهد مراراً، وهو يتقدّم على طوسون باشا، الذي كانت رتبته برتبة الباشا في جدّة.. ولذلك تسنّى لبيركهارت أن يشاهد طوسون باشا وهو يقبل يد شيخ الحرم، في داخل المسجد النبوي[٨].

وينتقل بيركهارت بعد ذلك إلى الكتابة عن الوضع الاقتصادي قائلاً: إنّ المدينة لا تحتوي أية صناعات، وإنّ أي ترميم في المسجد النبوي كان يتطلب إحضار الحرفيين من مصر، إلّا أنه لاحظ أنّ الزراعة كانت متطورة جدّاً[٩].

● أماكن الزيارة الأُخرى

ويمضي بيركهارت في ذكر أماكن الزيارة الأُخرى، ويبدأ بالبقيع حيث يثوي عدد من الصحابة والأئمة والشهداء، ويصف مدى الخراب الذي لحق بها على يد الوهابيين، مشيراً إلى بقايا القبب والمباني الصغيرة التي عمدوا إلى تخريبها من فوق: قبور العباس وبعض الأئمة وعثمان وستنا فاطمة وعمّات النبي صلى الله عليه وآله. والموقع بأجمعه عبارة عن أكوام من التراب المبعثر، وحفر عريضة، ومزابل، على حدّ تعبير بيركهارت.

ويذكر بيركهارت بالمناسبة أسماء الشخصيات الإسلامية، التي قُبرت في البقيع.. لكنه حينما يذكر قبر الإمام الحسن بن علي عليهما السلام يتوهم أنه قبر الإمام الحسين سيّد الشهداء، فيقول: إنّ جسمه فقط دون الرأس قد دُفن فيه، ويشير إلى أنّ الرأس قد أُخذ إلى القاهرة وحفظ في جامع خاص يُدعى، الحسنية[١٠]!

ثمّ يصف زيارته إلى جبل أحد، حيث وجد المسجد، الذي شُيِّد حول قبر الحمزة وغيره من شهداء أُحد.. وقد هدّم الوهابيون القبة المشادة فوق القبر، لكنهم لم يتعرضوا للقبر نفسه.

وعلى مسافة من هذا المسجد وجد قبةً صغيرة تشير إلى المكان الذي أُصيب فيه الرسول عليه السلام في موقعة أُحد، وعلى مسافة قصيرة من هذه القبة وجد قبور اثني عشر صحابياً من أصحاب الرسول، الذين استشهدوا في موقعة أُحد أيضاً، وقد خرّب الوهابيون قبورهم وعبثوا بها..

وزار بيركهارت منطقة قبا أيضاً، وأهم مايذكره عنها أنها ملأىٰ بالبساتين العامرة... ويقوم مسجد قبا التأريخي مع ثلاثين أو أربعين بيتاً من حوله في وسط هذه البساتين، وقد وجد المسجد صغيراً وبحالة خربة، ويلاحظ فيه «مبرك الناقة».

والبقعة التي صلّى فيها النبي عند وصوله إلى (قبا).. وعلى مسافة قصيرة من مسجد قبا شاهد مسجد علي، وبقربه بئر عميقة تسمى «العين الزرقاء»[١١].

● **سكّان المدينة**

أمّا سكان المدينة المنورة وطبقات الناس فيها، فيقول بيركهارت عنها: إنهم مثل سكان مكّة، أكثريتهم من الغرباء الذين تجذبهم قدسية البلد إليها، من جميع أنحاء العالم الإسلامي. وعلى هذا فهناك فيها جاليات من كلّ بلد إسلامي تقريباً، ولا توجد فيها إلّا أقلية صغيرة من نسل الأنصار، الذين كانوا يسكنون المدينة، عندما هاجر النبي إليها سنة ٦٢٢ للميلاد. فهناك حوالى عشر أُسر يمكنها إثبات نسبها وتحدّرها من الأوس والخزرج، وهذه أُسر فقيرة تعيش على الفلاحة في الضواحي والبساتين.

على أنّ عدد الشرفاء الحسينيين غير قليل في المدينة، لكن معظمهم غير مدنيين في الأصل، وإنما كان آباؤهم قد نزحوا إليها من مكّة خلال الحروب التي كان يشنّها الشرفاء للاستيلاء عليها. وينتمي معظم هؤلاء تقريباً إلى طبقة العلماء، أمّا الشرفاء المحاربون الذين يشبهون شرفاء مكّة فقليلون جدّاً. وهناك أيضاً قبيلة صغيرة من الشرفاء الحسينية

المنحدرين من نسل الحسين شقيق الإمام الحسن عليه السلام. ويُقال: إنهم كانوا أقوياء في المدينة سابقاً، وكانوا يأخذون لأنفسهم القسم الأكبر من واردات الحرم الشريف، فإنهم كانوا خلال القرن الثالث عشر سدنة القبر المطهر المحظوظين.

لكنهم تضاءلوا بعد ذلك، حتى أصبحوا اليوم يقتصرون على عدد محدود من الأُسر، التي لا تزال من علّية القوم في البلد وسكانه الأغنياء، وهم يشغلون حارة خاصة بهم، ويحصلون على أرباح طائلة ولا سيما من الحجاج الإيرانيين الذين يَفِدون على المدينة للزيارة. ويُفهم ممّا كتب في هذه الرحلة أنّ هؤلاء من شيعة المدينة، الذين يمارسون عبادتهم على الطريقة السنّية في الظاهر، ومع هذا فيطلق عليهم «الرافضة».

والمعروف في كلّ مكان أنّ بقايا الأنصار القدماء، وعدداً كبيراً من عرب المدينة الفلاحين الذين يفلحون البساتين والحقول من حولها هم من «الرافضة»، أي الشيعة كذلك. ويُسمّى هؤلاء «النخاولة»؛ لأنهم يعيشون بين النخيل، وهم كثيرون في عددهم وشجعان في الحروب.. ولذلك قاوموا الوهابيين حينما احتلوا المدينة مقاومة عنيفة.. ونقول إنّ المعروف في التأريخ، ولدى المطلعين من الناس، أنّ النخاولة من الفلاحين الذين كانوا يفلحون في بساتين الإمام الحسن عليه السلام، ويقول بيركهارت كذلك: إنّ النخاولة لا يتزاوجون مع غيرهم إلّا في النادر، ومعظمهم يجاهرون بالشيعية حينما يكونون بين نخيلهم، لكنهم يدّعون بالسنية حينما يكونون في البلد، وقد استوطن بعضهم في الضواحي فاحتكروا مهنة القصابة. وتعيش في البادية من جهة الشرق، على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة، قبيلة بدوية بكاملها يسمى أفرادها «بني علي»، وهؤلاء كلّهم من الشيعة أو من معتنقي المذهب الإيراني، على حدّ تعبير بيركهارت، الذي يستغرب كيف أنّ أقدس مدينتين في الإسلام

تُحاط إحداهما بالزيدية (أي مكّة) والأُخرى بالجعفرية (أي المدينة)، ولا تبذل أية محاولة لاجلائهم!!

ومن بين الأُسر القديمة في المدينة أُسر تنحدر بنسبها من نسل العباسيين كذلك، لكن شأنهم قد انحطّ الآن حتى أصبحوا فقراء. ويطلق عليهم «الخليفة»، أي المنحدرون من نسل الخلفاء.. ثمّ يسهب بيركهارت في ذكر الجنسيات الأصلية التي ينتمي إليها سكّان المدينة، ويقول: إنّ الجيل الثاني أو الثالث، من السكان غير العرب، يستعربون بالتدريج، ويصبحون عرباً حتى في قسمات وجوههم. ويتطرق بعد ذلك إلى لباس المدنيين وأسلحتهم، وأحوالهم المعاشيّة والاقتصادية، وتجارتهم وأطعمتهم، وعاداتهم وطباعهم[١٢].

وفي فصل خاص بحكومة المدينة يلخص بيركهارت تاريخها منذ صدر الإسلام إلى يوم وصوله تلخيصاً مختصراً جدّاً، لا نرى موجباً لنقله هنا..[١٣].

● **القاهرة.. نهاية المطاف**

كانت ينبع آخر محطة له في الحجاز، حيث واجهه مرض الطاعون فغادرها بسرعة. وفي الرابع والعشرين من حزيران (يونيو) ١٨١٥ عاد إلى القاهرة، بعد غياب دام سنتين ونصف السنة؛

كانت صحته عليلة، إلّا أنه لم يفقد الأمل في الذهاب إلى تمبكتو[١٤]، وقد قضى سنواته الأخيرة في أعمال تعتبر لهواً وتسلية. فقد كانت لا تزال أمامه تلك الرحلة عبر الصحراء الكبرى إلى ضفاف نهر النيجر. وفي الوقت نفسه كان أعضاء الجمعية الأفريقية ينتظرون عودته إلى لندن[١٥]. ولمّا سأل عن القافلة جاء الجواب مخيّباً لآماله مرّة أُخرى: مجيء القافلة لم يكن متوقعاً في المستقبل القريب! عندها استقرّ ودوّن رحلاته، وأمضى شهرين في صحراء سيناء يستكشف مناطق جديدة[١٦]، وذلك في ربيع عام ١٨١٧. وفي حزيران عاد إلى القاهرة، واستعدّ للمسيرة إلى

الجنوب الغربي.

بعد رجوعه إلى القاهرة بأيّام، تغلّب عليه المرض فتوفي في ١٥ تشرين الأوّل (اكتوبر) ١٨١٧، ودفن في العاصمة المصرية.. بعد شهرين فقط انطلقت أوّل قافلة إلى تمبكتو منذ أربع سنوات[١٧].

قبيل وفاته، أوصى بيركهارت بوقف مجموعة مخطوطاته على مكتبة جامعة كمبردج، وكتاباته كلّها تدور حول رحلاته، كرحلة للشام والأراضي المقدسة[١٨].

وهي حسب تأريخ صدورها: الرحلة إلى بلاد الشام (لندن ١٨١٤ـ١٨٢٢)، ورحلة إلى الجزيرة العربية (لندن ١٨٢٩)، وسجلات أسفار في الشرق الأدنى والاتصال بالبدو والوهابيين (لندن ١٨٣١، باريس ١٨٣٥)، ومجموعة من الأمثال العربية، متناً وترجمة انجليزية وشرحاً (لندن ١٨٣٠) وقد ترجمت من الإنجليزية إلى لغات أُخرى اوروبية، منها الألمانية، بقلم هـ. ج كرمز (١٨٣٤)، وكتاب الرحلات النوبية. وهو من أوائل الكتاب الاوروبيين، الذين كتبوا عن العرب القاطنين في شمالي السودان وفي مملكة سنار.

وقد تولّت الجمعية الأفريقية في انجلترا نشر جميع مصنفاته، ومازال بعض مخطوطاته في مكتبة ابن أخيه جاكوب بيركهارت، وكان رئيساً لقسم العلاقات الدولية في وزارة الخارجية السويسرية[١٩].

وعندما نُشر كتاباه عن رحلته إلى بلاد العرب، ومشاهداته عن البدو والوهابيين.. أدرك علماء اوروبا مدى خسارتهم بفقد بيركهارت، خاصة وأنهما أصبحا مرجعاً يعتمد عليه، ويتجلّى ذلك من رجوع المستشرقين، في مواطن كثيرة، إلى بيركهارت، في موسوعتهم الموسومة بـ«دائرة المعارف الإسلامية». أمّا علىٰ صعيد الرحالة فقد بزّ سابقيه وأعجز اللاحقين. وهذا الرحالة الشهير ريتشارد برتون الذي زار الحجاز

والشام، ورغم ملاحظاته وهوامشه التفصيلية الكثيرة أقرّ أنه لا يستطيع أن يضيف لما كتبه بيركهارت عن البدو إلّا قليلاً[٢٠]. مؤكداً أنه قد وصف مارآه قدر الإستطاعة، ولكنه اعترف أنه لا يستطيع أن يصل إلى دقة بيركهارت، الذي يعترف برتون أنه مدين له ليس بالشكر والامتنان فحسب، بل بالاقتباس عنه بصورة جلّية واسعة واضحة[٢١].

يقول الباحث البريطاني «بيتر برينث»: من المضحك المبكي أن نسمع أنه عندما طُرحت فكرة إنشاء نصب تذكاري لبيركهارت يُنصب فوق قبره في القاهرة، تحمّس العلماء والامبرياليون والمستكشفون الجالسون على كراسيهم في الغرب، وجمعوا بعضهم مع بعض مبلغ عشرين جنيهاً استرلينياً فقط[٢٢]!

لم يوضّح «برينث» سبب هذه المفارقة، ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ بيركهارت ليس انكليزياً قحّاً، فهو سويسري مأجور للدوائر البريطانية، ولا ننسى أنّ الامبراطورية البريطانية كانت تتوثّب إلى دخول الحقبة الفيكتورية، بكلّ غرورها وغطرستها وتعاليها على الآخرين، بمن فيهم الغربيون غير الإنكليز!!

● **اشكالية.. واثارة**

وعلى ذكر النصب التذكاري، فإنّ ثمّة مفارقة أُخرى ملفتة للانتباه، يحملها قبره الموجود في القرافة الكبرى بسفح المقطم، إذ كُتبت عليه العبارة الآتية: «هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى الشيخ حاج إبراهيم المهدي بن عبد الله بركهرت اللوزاني، ولادته ١٠ محرم سنة ١١٩٩، وتأريخ وفاته إلى رحمة الله بمصر المحروسة في ١٦ ذي الحجة سنة ١٢٣٢ هـ»[٢٣].

والسؤال هو: هل العبارة الآنفة الذكر قد كُتبت بناءً على توصية خاصّة من بيركهارت نفسه.. أم كانت بايعاز من القنصل البريطاني في القاهرة، أم كانت مجرّد اجتهاد من المشرفين على المقبرة..؟!

إنّ هذه الإثارة تطرح ـ بقوة

ربما ـ اشكالية علاقة بيركهارت بالإسلام، الأمر الذي يحتاج إلى قدر من تعرية هذا الإبهام. خاصة وأنّ البعض استسلم ـ سذاجة أو سوء نيّة ـ لحكاية إسلام (الشيخ) إبراهيم بيركهارت!!

ففي حدود علمنا، لم يجرؤ أحد على تسويق قصة إسلامه سوى الكاتب النصراني «أمين الريحاني»، الذي أشار إلى اسمه بأنه (الحاج عبدالله) ووصفه بأنه (صديق محمد علي وصديق العرب والإسلام).. وقال عنه: «كان بيركهارت في قيافته وفي إسلامه محترماً موقراً»، دون أن ينسى الريحاني الإشادة ببيركهارت لشهادته العلمية المنزهة عن الأهواء الخاصة والمذهبية؛ لا لشيء سوى أنه قال: «جاء الوهابيون يطهرون الحجاز»! كما وصف الوهابية بأنها تمثّل الإسلام في طهارته الأُولى[٢٤].

وعلى خطى الريحاني، وإن كانت بصورة أخف، جاءت الصحافية «رالي الزين» لتقول عن بيركهارت بأنه «اعتنق الإسلام» بعد فترة من الزمن خلال مكوثه في حلب[٢٥]. في حين نجد أنّ نجيب العقيقي صاحب كتاب «المستشرقون» لم يُشر قط إلى مسألة إسلام بيركهارت، واكتفى بالعبارة «وقد تسمّى بإبراهيم بن عبد الله» دون تعليق[٢٦].

أمّا صاحب قاموس «الأعلام» فقد شكّك في إسلام بيركهارت، إذ قال: «ثمّ مضى إلى الحجاز مسلماً أو متظاهراً بالإسلام، وتسمى بإبراهيم ابن عبد الله»[٢٧] ومن نافلة القول التأكيد بأنّ «خير الدين الزركلي» لم يكن أوّل المشككين، بل إنّ بيركهارت نفسه أشار إلى بعض معاصريه، وفي مقدمتهم محمد علي باشا، إذ يُستبان ممّا دونه أنّ محمد علي باشا كان يشكّ في إسلامه، ومع هذا فقد سمح له بالتوجه إلى الحج في مكّة[٢٨]، ويكاد المريب يقول خذوني!

قبال ذلك نكتفي بثلاث شهادات من الضفة الأُخرى، يرقى بعضها إلى درجة الاعتراف. فهذا صاحب

«المنجد» يقول عن بيركهارت: «.. ثمّ زار مكّة وجدة متنكراً باسم الشيخ إبراهيم»[٢٩]، فيما اعترف ناشر كتبه الإنكليزي ويليام أوسلي، كما مرّ، بأنّ معرفة بيركهارت للعربية واطلاعه التام على أحوال المسلمين وعاداتهم قد ساعداه على تقمص دور الرجل المسلم بنجاح، حتى استطاع أن يعيش في مكّة، خلال موسم الحج كلّه، ويشترك في مناسكه وشعائره، من دون أن يثير أدنى شك بشخصيته المنتحلة[٣٠].

ورغم ماتعنيه الألفاظ المتقدمة مثل «متنكراً» و «تقمّص» و «شخصيته المنتحلة».. من دلالات، بل شهادات ثبوتية، فإنّنا نترك الحكم الفيصل للبروفيسور «ادوارد سعيد» حيث يقول: «لقد هاجم مؤرخون ثقافيون محترمون، مثل ليبولد فون رانكه وجاكوب بيركهارت، الإسلام بعنف كأنهم كانوا يتعاملون لا مع تجريد من التشبيه التجسيمي، بل مع ثقافة سيا ـ دينية يمكن إصدار تعميمات عميقة حولها، واعتبارها مسوّغة. ففي كتابه تأريخ العالم (١٨٨١ـ١٨٨٨) تحدّث رانكه عن الإسلام واصفاً هزيمته أمام الشعوب الجرمانية ـ الرومانية، وفي «شذرات تأريخية» (ملحوظات غير منشورة، ١٨٩٣). تحدّث بيركهارت عن الإسلام (كشيء) بائس عارٍ، وتافه[٣١].

فأين يا ترىٰ هذه الرؤية الحاقدة عن الإسلام من ادّعاء الريحاني بأنه صديق العرب والإسلام؟! وأين هي شهادة العلماء المنزهين عن الأهواء..؟!

ويبقى من المفيد الإشارة إلى ملاحظة المرحوم «جعفر الخياط» الخبير بكتابات الغربيين عن الإسلام والشرق، إذ يقول: «ويلاحظ من بعض مايكتبه بيركهارت في الرحلة أنه ربّما كانت لهُ علاقة بالاستخبارات البريطانية في تلك الأيام، فهو يقول: إنّ وصول الغرباء من جميع أنحاء العالم الإسلامي، أي من تمبكتو إلى سمرقند،

ومن بلاد الكرج إلى بلاد بورنيو، تجعل جدّة مكاناً ممتازاً جدّاً للاوروبي المسافر المعني بجمع الأخبار وحب الاستطلاع. فهو بتقديمه المساعدة للحجاج الفقراء، وصرف مبالغ زهيدة لتجهيزهم بالمؤن، يمكنه أن يجتذب إليه عدداً كبيراً فيستطيع بهذه الوسيلة جمع معلومات كثيرة تختص بأبعد البلاد المعروفة في أفريقيا وآسيا..»[٣٢].

وهذا غيض منشور للملإ... من فيض خفي ماتزال تحتفظ به أراشيف اللعبة الكبرى.. التي كان شرقنا الإسلامي، ومايزال، مسرحها العريض!!

ملاحظة بيركهارت تفتح شهيّة الأطماع

ظلّت ملاحظات «بيركهارت» عن الحرمين الشريفين مرجعاً مهماً، ويعتمد عليها من قبل المعنيين في الأوساط الأوروبية. ولم يتمكّن رحالة آخر من إضافة شيء مهم، وذي قيمة علمية، الى ما ذكره في كتابه (رحلات الى بلاد العرب) الذي صدر عام ١٨٢٩م، أي بعد اثنتي عشرة سنة من وفاته... حتىٰ قيام الرحالة البريطاني «ريتشارد بورتون» برحلته الشهيرة التي وصفها في كتابه «الحج الى مكة والمدينة»، إذ يُعدّ من أعظم المراجع عند الغربيين في موضوعه[٣٣].

وما بين رحلة بيركهارت سنة ١٨١٤م، ورحلة برتون سنة ١٨٥٣م.. أمست جزيرة العرب بشكل عام، والحجاز خاصة، مسرحاً لمغامرات عديدة قام بها دبلوماسيون وضباط وموظفون ومغامرون وجواسيس. ورغم الحشد من هؤلاء لم يبرز منهم سوىٰ بعض الأسماء التي ظلّت شبه مغمورة، دون أن يترك أيٌّ منهم أثراً ثقافيّاً مرموقاً، سوىٰ «فالين» الذي ترك يومياته وطبعت بعد وفاته.

ومن المثير أن نجد أغلب المحاولات الرامية للحج قد باءت بالفشل الذريع، وحتىٰ أولئك الذين تسنّىٰ لهم الوصول الى الديار المقدسة

لم تتم مهماتهم بالشكل المطلوب، لهذا السبب أو ذاك، ما عدا الرحالة الفنلندي «فالين» الذي تمكن من الدخول الى مكة فعلاً، دون أن يُحقق شيئاً ذا بال!

وفي هذا السياق؛ كان للتنبّؤ الذي أطلقه بيركهارت، حول احتمال انتهاء حكم الأتراك في الحجاز، أثره في إلهاب حماس طلائع المستعمر، وفتح شهيّة الأطماع للسيطرة على مناطق النفوذ، وهكذا رأينا تزاحمهم في المشرق الاسلامي، متذرّعين بشتى التبريرات. وقبل أن يمضي عامان على وفاة بيركهارت، وصلت بعثة من بومباي في الهند تنقل تهاني البريطانيين الى ابراهيم باشا بن محمد علي باشا لاستيلائه مع جيشه المصري على مركز الحركة الوهابية في الدرعية. وكان رئيس هذه البعثة رجلاً متكبراً عنيداً يفتقر الى الخيال، وهو من الضباط المتعجرفين، على حد قول بيتر برينت، وهذا الرجل يدعى الكابتن «سادلير Sadlier»، وقد أُعطي الصلاحية لابرام معاهدة صداقة وحلف مع ابراهيم باشا[٣٤].

ولكن «سادلير» هذا أصبح أحد المستكشفين المتطوعين لبلاد العرب، وقد عبر شبه الجزيرة من الشرق الى الغرب، وربما كان أول أوروبي يقوم بمثل هذا العمل، ومع أنّ رحلته كانت في شهر تموز، إلّا أنه قد نجا من ويلات الصيف في الصحراء، بعد سقوط الأمطار غير الموسمية، ولم يذكر شيئاً عن الشعب.. وأما ملاحظاته الطبوغرافية، فمع أنها كانت قليلة ونادرة، إلّا أنها كانت دقيقة ومفيدة.

وبعد أن مرّ «سادلير» قرب المدينة المنورة التي كانت لا تسمح أن يدوس على أرضها وشوارعها رجل كافر، وصل أخيراً الى شواطئ البحر الأحمر قرب (ينبع)، وعلى الرغم من مقدرته على الاحتمال ونشاطه إلّا أنّه لم يكن كفؤاً لابراهيم باشا دبلوماسياً. وذلك لأنّ إبراهيم لم يكن بحاجة الى البريطانيين، وهكذا فقد فشلت البعثة في أهدافها الرئيسية، ولم يحدث أي

تقارب أو اتفاق مع محمد علي في مصر ومع البريطانيين. وبعد مرور بضعة أشهر وجد «سادلير» سفينة أوصلته الى الهند، وهكذا حصلت شبه الجزيرة العربية على وصف شامل على يد رجل كاره لذلك، ولكن مضىٰ حوالى خمسين عاماً، قبل أن تُنشر نتائج تلك الرحلة، وأصبحت معروفة عند حلقة واسعة من المجموعات الأدبية والدوائر العلمية في بومباي. ومن ذلك الحين فصاعداً بدت بلاد العرب، وكأنها أصبحت لغزاً أو حصناً محصناً ضد حشرية الغرب، ولم يتجرّأ أحد على اقتحامها سوىٰ بعض الرحالة الذين جلبهم سوء طالعهم الى تلك المناطق[٣٥].

وفي غمرة احتدام التنافس الاستعماري بين القوتين العظميين يومئذ؛ بريطانيا وفرنسا.. بدأت دول غربيّة أخرىٰ في التسلل الى المنطقة تحت واجهات عدّة.

من الطيف الاستعماري

فبعد مرور خمس سنوات على وفاة «بيركهارت» في القاهرة، حيث دُفن هناك، ودُفنت معه أخطر الأسرار عن طبيعة مهمته، لتكون القاهرة على موعد آخر مع شخص غامض قادم هذه المرّة من العالم الجديد (أمريكا)، وليس من أوروبا، كما كان المألوف في تلك الأيّام!، وبهذا تكون أمريكا قد دشّنت حضورها الذي سيتكثّف لاحقاً.

في عام ١٨٢٣، وصل «اينجليش» المخبر السري لدىٰ وزير الخارجية الأمريكي «أدامز» الى مصر، واعتنق الاسلام، وانخرط في جيش والي مصر محمد علي (باشا)، وحاول بكلّ الوسائل أن يوسّع الاتصالات مع السلطات المحلية. ونتيجة هذا النشاط المتعدد الجوانب وجه الرئيس الأمريكي «جاتسون» ١٨٢٩م بعثة خاصة الى اسطنبول، بغية توقيع المعاهدة الأمريكية ـ العثمانية الأولىٰ. وممّا له دلالته أنّ رئيس البعثة هو قائد عمارة المتوسط الأمريكية «بيدل»، وأنّ أعضاءها هم

من كبار تجار الأفيون. وفي ٧ مايس (مايو) ١٨٣٠ وقعت أول معاهدة عثمانية هيّأت لتجار الأفيون والدبلوماسيين الأمريكان إمكانيات واسعة للتغلغل في المنطقة العربية[٣٦].

في تلك الأثناء، وخاصة خلال السنوات العشر، بين ١٨٢٦ ـ ١٨٣٦م، كان قد تمّ تخطيط سواحل الجزيرة العربية، من قبل البعثات الانكليزية، وكان من نتائج هذين؛ التخطيط والإعداد، الهجوم الانكليزي العسكري على عدن واستعمارها، في حين كانت عُمان قد وقعت قبلها تحت النفوذ الانكليزي.

وفتح استعمار عدن الطريق واسعاً، أمام الانكليز، لمدّ نفوذهم الى جميع أنحاء العالم العربي.. وقد استغل كثير من علماء الآثار والمستشرقين والدبلوماسيين وجود الانكليز في جنوب الجزيرة، فرحلوا الى هناك، للبحث والتنقيب عن الآثار الحضارية القديمة[٣٧]، فيما يظلّ اختراق الديار المقدسة طموحاً يراود الجميع. ونكتفي بايراد نموذج واحد.

بوتا؛ المحاولة الفاشلة

في عام ١٨٣٦م، رحل عالم الآثار الفرنسي «أميل بوتا»، الذي كان يعمل كمستشار ديبلوماسي في القنصلية الفرنسيّة في الاسكندرية الى اليمن، ومن اليمن رحل الى العراق، حيث زار بغداد والموصل، ثم انتقل الى طرابلس، فالقدس. وكان الارتباط بين العلم والديبلوماسية وثيقاً، وذلك لتبرير البعثات الاستعمارية وأهدافها، التي تقوم بالتنقيب عن الآثار القديمة، وتكوين علاقات مع العشائر والتجار. ومع المعروف، أيضاً، أنّ أغلب الموظفين الكبار، الذين كانوا يعملون في السفارات والقنصليات الأوروبية، خلال القرن التاسع عشر، كانوا من العلماء والمستشرقين، وبصورة خاصة في القنصليات الانكليزية والفرنسية.

و«أميل بوتا» كان من أولئك العلماء، الذين رحلوا، على رأس بعثة علمية من قبل حديقة الحيوانات في باريس، للبحث في التاريخ الطبيعي

لمصر وسيناء واليمن. وقد ساعدته الظروف، حينذاك، لجهة الاستقرار السياسي النسبي، الذي ساد الجزيرة العربيّة، فقام باعداد بعض البحوث والتقارير عن التاريخ الطبيعي والخلافات العشائرية، فأقام علاقات وطيدة مع الشيخ حسن، أحد رُؤساء العشائر الكبيرة، الذي كان بينه وبين إمام صنعاء خلافات حادّة، ممّا جعله يتقرّب الى ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير. وكانت هذه العلاقة قد وفّرت له إمكانية زيارة أجزاء كبيرة من الأراضي الجبلية في اليمن. وبمساعدة من جنود الشيخ حسن وخدمه، استطاع، أيضاً، الوصول الى قمّة جبل سبإ، الذي لم يستطع «فورسكال» الوصول اليه، من قبل. إلّا أنّ الفرصة لم تسنح لبوتا لزيارة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وذلك لسبب أنّ الحجاز أصبح منذ ١٨٤١م جزءاً من اليمن، وخضع لسلطة الدولة العثمانية، وبات عليه أن يحصل على «فرمان» من السلطان، لزيارة مكة والمدينة[٣٨].

ولم يكن «بوتا» الأوروبي الوحيد الذي أخفق في الوصول الى الديار المقدسة، وقد عزفنا عن ذكر البقيّة، وليس هناك من مهمة يكتنفها الغموض تستحق التوقّف غير تلك التي قام بها كلّ من «روش» و«فالين».

روش: المشروع الخائب

و«ليون روش» أحد مشاهير الرّحالة الفرنسيين الى الجزيرة! ولد في «غرينوبل» عام ١٨٠٩م، فاحتضنته خالته، بعد وفاة أمّه وهجرة والده الى الجزائر. وحين بلغ الثالثة والعشرين ترك دراسة القانون وانضمّ الى والده في الجزائر، كضابط في الحرس الوطني. وهناك وقع روش الحالم في حبّ فتاة من الارستقراطية الجزائرية في الرابعة عشرة من العمر تدعىٰ خديجة، لكن أهلها رفضوا السماح لها بالزواج من مسيحي.

وانصرف «روش» الى تعلّم العربية؛ لكي يتمكّن من مراسلة

خديجة عن طريق خادمتها، وبعد ذلك أصبح مترجماً في الحملة الفرنسية ضد الزعيم الوطني عبدالقادر الجزائري، لكن بدلاً من أن يكنّ الكره والبغضاء لعبد القادر نمت لدىٰ «روش» موجة إعجاب شديد بالزعيم الثائر. وما لبث أن اعتنق الاسلام من أجل أن «يجمع بين الجزائر المسلمة وفرنسا المسيحية». ثم سافر في داخل الجزائر أياماً طويلة الى أن بلغ مضارب الأمير عبدالقادر. وقد اعجب الأمير بصدق «ليون روش» بحيث تكفّل شخصيّاً بتدريسه التعاليم القرآنية، وجعله مساعده الخاص. وحين عثر والد «روش» علىٰ معسكر عبدالقادر اتجه اليه وتوسّل ابنه به للعودة معه لكنه رفض. وقد أثّر ذلك في نفس عبدالقادر تأثيراً كبيراً. وبعد فترة انتقل الأمير وقواته الى بلدة «عين مهدي» فحاصروها أربعة أشهر. وحين دخلوا اليها اكتشف «روش» أن حبيبته خديجة كانت بين الضحايا!، ومثل جميع رومانسيي القرن التاسع عشر أراد الانضمام اليها، لكن عبدالقادر ثناه طالباً اليه الاستعداد لحملة على الفرنسيين، فتردّد ثم امتنع، وأطلقه عبدالقادر في سبيله غاضباً، قائلاً له: جزاؤك في الاسلام جزاء المرتدين. لكنني أترك معاقبتك لله!

عاد «روش» الى پاريس، يوم كانت تعجّ «بالمستشرقين»، فانضمّ الى موظفي الدولة الفرنسية، وعادت اليه أحلامه بالجمع بين الجزائر وفرنسا، وهكذا وضع مشروع «فتوىٰ» في هذا الشأن، وذهب الى جامعة برقة في ليبيا؛ لكي يطلب الى العلماء التصديق عليها، فأحالوه بدورهم على علماء الأزهر، الذين قالوا: إنّ مجلس العلماء في مكة المكرمة وحده يستطيع التصديق عليها.

خلال وجوده في القاهرة تعرّف «روش» الى محمد علي باشا، حيث أعرب الزعيم المصري عن تقديره لكفاح الشعب الجزائري ضد الفرنسيين، وقد أعجب محمد علي بصدق «روش» ونواياه، لكنه لم يؤخذ

كثيراً بمدىٰ اعتناقه الاسلام. وكتب «روش»، فيما بعد، أنه رأىٰ في عيني محمد علي تلك القسوة التي أمرت بمذبحة المماليك. ومن القاهرة أخذ الفرنسي الطريق البري الى السويس ثم بالباخرة الى «ينبع»، حيث أثارته معاملة الحجاج الجزائريين الذين حشروا كلّ ٢٠٠ في مقصورة، تتسع فقط لخمسين شخصاً، وقد كتب يشكو شركة النقل الى محمد علي، والباب العالي، والقناصل الأوروبيين في جدّة.

وبعد أيام من وصوله اتجه «روش» الى الطائف حيث عرض على مجلس للعلماء المشروع الذي جاء من أجله. ومن هناك اتجه الى عرفات، حيث تعرّف إليه جزائريان...، وفجأةً رأىٰ نفسه محمولاً على أكف ستة من الزنوج الأشداء الذين شدّوا وثاقه الى أحد الجمال السريعة، فنقل الى جدّة، حيث وضع على سفينة أقلته الى مصر. وتبيّن فيما بعد أنّه وضع على سفينة أقلته الى مصر، وأن محمد علي وضع حرّاساً يراقبون تحرّكات «روش» ويحمونه في وقت واحد.

كانت طموحات وأشياء كثيرة تتنازع «ليون روش» الذي وجد نفسه في خدمة الجهاز السرّي الفرنسي. وحين عاد الى اوروبا انتابته نوبة من الندم، من جرّاء عمله التجسسي، فرأىٰ أن الطريق الوحيد الى الهرب هو الانتماء الى سلك الرهبنة، فذهب الى روما وانضمّ الى اليسوعيين، إلّا أنّ الفرنسيين لم يقبلوا استقالته، وأقنعوا البابا غريغوري الثامن عشر بعدم قبوله، وهكذا عاد الى الجزائر؛ لكي يساهم في هزيمة الأمير الكبير عبدالقادر، وأنهىٰ حياته سفيراً لفرنسا في اليابان.

كان «ليون روش» الفرنسي يشبه الى حدّ كبير البريطاني، الذي جاء بعده بعشر سنوات، «ريتشارد بورتون» الذي تنازعته، هو الآخر، مشاعر وأهواء كثيرة من الامبريالية الى الوصولية الى الشغف بما رأىٰ[٣٩].

فالين: الاعداد والتحويل

أما المهمّة السريّة الغامضة الثانية فكان بطلها الرحالة الفنلندي «جورج أوغست فالين»[٤٠]. وكان هذا يُحسن التحدّث باللغة العربية بطلاقة، وقد أصبح فيما بعد استاذاً للعربية في جامعة هلسنكي. ويُقال: إنه عمل جاسوساً لمحمد علي باشا في شمال نجد.

«والحقيقة أنّ قصّة هؤلاء الرحالة.. تظلّ دائماً والى الأبد من القصص المدهشة المثيرة، في الوقت نفسه الذي بقيت فيه سياسة مصر العثمانية الهاجس والمحرّك الأول لأولئك الأشخاص المختصّين»[٤١].

ولكي نكون أمام مهمة فالين السريّة، بشكل أكثر وضوحاً، لابدّ من التدرج التاريخي لسيرته، وطريقة إعداده الخاصة. إذ ولد في جزائر آلاند، غربي فنلندا، وتعلّم في جامعتها، وهو في الثامنة عشرة من العمر، وبدأ يدرس اللغات الشرقية موضوعاً أساسياً، وقد خصّص كثيراً من وقته وطاقته للألعاب المختلفة وللموسيقى، لكنه أيضاً حقّق نجاحاً كبيراً في دراساته. وبصرف النظر عن دراساته الأكاديمية البحتة فقد اكتسب بنفسه معرفة عملية فعالة في لغات عديدة. وكانت اللغة السويدية لغته الأمّ، غير أنه كان يجيد أيضاً الألمانية والروسية والفرنسية والانكليزية.

وكان من الطبيعي، على وجه الدقة إذن، أن يرغب في بلوغ معرفة عملية في اللغات الشرقية (العربية، التركية، الخ) التي درسها في الجامعة. وتعلّم أن يتكلّم شيئاً من العربية على يدي متفقّه تتري في هلسنكي. ونجم عن اهتمامه في العربية الدارجة كتابة اطروحة ماجستير عن الفروق الرئيسية بين العربية الفصحى والدارجة، تلك الاطروحة التي كتبها باللاتينية في ١٨٣٩م[٤٢].

في سنة ١٨٤١م قصد العاصمة الروسية عندئذ (بطرسبرغ)، والتي سُمّيت لينغراد لاحقاً. فازداد في جامعتها تضلعاً بالعربية على يد استاذها الشيخ محمد عياد الطنطاوي،

حيث مكث في مدرسة الألسن لمدة عامين، وبقي هناك حتىٰ آخر سنة ١٨٤٢م[٤٣].

ولم تلفت الدراسات الجامعية النظرية انتباه «فالن» كما فعلت الدراسات العملية. ولم يكن هناك شيء أحبّ الى نفسه من تعلّم المصرية الدارجة على يد معلم العربية الشيخ الطنطاوي (وهو خبير في اللهجة العامية، واستاذ مصري منتدب للتدريس في روسيا). وبالفعل تمكّن «فالين» من كتابة ودراسة لغوية باللهجة المصرية.

وقبل أن يقفل راجعاً الى بلاده التحق «فالين» بأحد معاهد المدينة الطبية، ليتلقىٰ إعداداً تاماً في دراسة الطب العملي[٤٤]، وحال عودته الى هلسنكي يجد «فالن» أمامه منحة زمالة من جامعته، للسفر الى أواسط الجزيرة العربية. وليبدأ فصل المغامرة التي دامت حوالى ست سنوات.

المنحة... وطبيعة المهمة السريّة

لقد كان فالين هذا رجلاً فقيراً حصل على منحة مالية من جامعته، وكُلّف بالسفر الى الجزيرة العربية، بمهمة الحصول على معلومات عن طبيعة الظروف السياسية السائدة، والوقوف مباشرة على طبيعة أرضها وعادات سكانها. وعندما حصل على المنحة من جامعة هلسنكي لزيارة المنطقة، لم يضيّع أيّ فرصة، فغادر هلسنكي في تموز (يوليو) ١٨٤٣م، متوجهاً الى پاريس التي ظلّ فيها فترة قصيرة، ومن هناك الى القاهرة، فوصلها في كانون الثاني (يناير) ١٨٤٤م[٤٥] حيث عاش كمسلم لمدة عام يذهب الى الأزهر لتلقي العلوم. وهناك تقرّب منه أحد موظفي وزارة الخارجية المصريّة، وعرض عليه أن يحوّل رحلته الى الجزيرة العربية، لقاء تزويد الحكومة المصرية بالتقارير عن الأوضاع السياسية. أمّا الغطاء الذي اُتفق أن يسافر تحته فهو تجارة الخيول[٤٦].

وبعد أن مكث أكثر من عام في القاهرة لدراسة اللغة ولاتخاذ

الترتيبات الضرورية، شرع فالن في رحلته الى الجزيرة العربية. وكان هدفه هو اجتياز الجزء الشمالي من الجزيرة[٤٧] وهكذا غادر القاهرة في نيسان (أبريل) ١٨٤٥م، ومعه اثنان من البدو، أمّا هو فقد تزيّا بالزي العربي وتسمّىٰ «عبد الولي»[٤٨]، وبعدما عبر سيناء أمضىٰ شهرين في معّان، ثم اتجه شرقاً عبر الصحراء السورية الى آبار ويسات، ومنها الى الجوف، بوابة صحراء النفوذ، أي تلك الصحراء الحمراء التي تقوم على حراسة الجزيرة العربية في الشمال.

بدأ رحلته عبر النفوذ في الأول من أيلول (سبتمبر)، ومعه دليل «يتبع نجمة القطب». وفي اليوم العاشر وصلت القافلة الى مياه جبه والعطش يكاد يقضي عليها. وعلى مسافة أيام أخرىٰ كانت تقع حائل التي «تحيط بها حقول الذرة وحدائق الخضار ويردّ عنها جبل شمّر نفح الشمس»[٤٩].

أمضىٰ فالين شهرين في حائل... وكان يأمل أن يتمكن من اختراق العمق في المنطقة الوهابية ويصل الى الرياض. أما جنوب اليمن فقد كان الوصول اليه صعباً لانشغال السكان بالعمليات الحربية والنزاعات الداخلية. ولقلّة أمواله (عكس الرحالة القدماء) والتي كانت تنحصر في المصاريف الضئيلة التي قدمتها له الجامعة، والتي لم تكد تكفي للقيام بأوده. لهذا لم يكن لديه موارد كافية ممكنة من الاستمرار في العمل. وعندما أصابه المرض علم أن قد حان وقت العودة.

لهذا فقد انضم الى جماعة من الحجاج الآتين من بلاد العجم واشترك معهم في مسيرة دامت حوالى (٨٥) ساعة متواصلة، عبر ذلك السهل الموصل الى المدينة المنورة.

وبعدها ساروا في تلك الهضاب كثيرة الوهاد والصدوع من أرض الحجاز حتىٰ وصلوا الى مكة.. فهل قام بشعائر الحج يا ترىٰ؟[٥٠]

حول هذه النقطة، هناك رأيان؛ الأول: يُحسن الظن بفالين ولا يشك في

إسلامه. والثاني خلاف ذلك. أمّا الرأي الأول فقد انفردت به صحيفة عربيّة في لندن، إذ كتبت تقول عن «فالين»: غادر العاصمة المصرية عن طريق سيناء فالجوف وصولاً الى مكة المكرمة، حيث أعلن إسلامه وتلقّب بـ «الحاج عبدالولي»، وأدّىٰ فريضة الحج».

وفي معرض دفاعها المبطّن عن «فالين»، ولإبعاد الشبهات عنه، مضت الصحيفة تلك في سرد أدلّة الدفاع قائلة: يمتاز المستشرقون الاسكندينافيون (السويد، الدنمارك، فنلندا) عن زملائهم الأوربيين الآخرين (بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، روسيا) والأمريكيين أيضاً، بأنّ رحلاتهم الى المنطقة ودراساتهم عنها إنما تمّت بدوافع عملية إجمالاً، على نقيض أبحاث ودراسات أخرىٰ غربيّة كانت توظّف لخدمة أغراض السياسة الاستعمارية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر».

وتضيف الصحيفة: «ومن بين عشرات المستشرقين الاسكندينافيين، يعتبر فالين (عبدالولي) الأكثر أهمية. فهو أوّل من تجوّل في شمال الجزيرة العربية، ووصف عادات أهله وتقاليدهم، ليس انطلاقاً من حبّ المعرفة فقط، بل لأنه وجد في هذه المناطق مبتغاه الروحي والثقافي (.. هكذا!). ولم يكن اعتناقه الدين الاسلامي ـ كما كان عند عدد من الرحالة الغربيين ـ مجرّد غطاء لتحقيق مآرب ومنافع خاصة، وإنما كان إيماناً خالصاً (... هكذا أيضاً!) تمثّل في كتابات نشرها في بلاده، توضّح تعاليم الدين الحنيف وتزيل عنه شوائب علقت في أذهان الغربيين، في القرنين الماضيين».

وتستشهد الصحيفة بقول المؤرخ اللبناني «يوسف ابراهيم يزبك» الذي يقول: «نهج (الشيخ عبد الولي) في دراسته نهجاً علمياً إذ رجع الى مخطوطات عربية قديمة تعدّ من الينابيع في معرفة تاريخنا وجغرافيتنا، وقرأها بإمعان (...) ومع صدق الشيخ

عبد الولي في إسلامه، ظلّ الرجل أُوروبي الاسلوب في إنشائه».

ثم تُعقّب الصحيفة على ما تقدم: «ولعلّ هذا الاسلوب هو الذي مكّن عبدالولي من التأثير الكبير في أوساط ودارسي اللغة العربية وآدابها وحضاراتها في الغرب، خلال تلك الفترة، فهو لم يقع أسير شكليات إيمانه الديني الجديد (..!)، بل أخذ منه الجوهر المناسب لعصره (..!) وطرحه على الناس بجرأة علمية كانت مميزة في ذلك الوقت. ويؤكد الذين حضروا وفاته المبكرة أنّ آخر عبارة ردّدها كانت «الحمد لله، الحمد لله».

وتختتم الصحيفة دفاعها: «وعرفت بلاده وجامعة هلسنكي تحديداً، هذه الميزة. وكرمته عند وفاته بمدفن متواضع جدّاً، وضع فوقه حجر نقش عليه اسمه العربي «عبدالولي» وبالعربية أيضاً».

ولم يفت الصحيفة ذكر تسلّمه، عند رجوعه من الشرق، جائزة «الجمعية الجغرافية الملكية» في لندن، عام ١٨٥٠، بوصفه أحد أوائل الأُوروبيين الذين اجتازوا شمال الجزيرة العربية، كما أنّ بلاده قد كرّمته بدورها فعينته في كانون الثاني ١٨٥١ أُستاذاً لكرسي الدراسات الشرقية في جامعة هلسنكي[٥١].

ونجد لزاماً علينا التوقّف قليلاً، لمناقشة ما ورد آنفاً.

مناقشة... وردود

وفي الوقت الذي لا ننوي فيه مناقشة بعض الآراء الواردة، التي ترقىٰ الى الأخطاء؛ لأنّ ذلك لا مجال له في منهج البحث... فإنّ من الممكن الردّ على ما نشرته الصحيفة المذكورة بما يلي:

أولاً: أنّ أدلّة الدفاع التي حشدتها ليس بمقدورها الصمود إزاء حيثيات الاتهام الدافعة. بل نستطيع القول: إنّ الصحيفة لم تثبت إسلام فالين، ولم تدحض، في آن معاً، ضلوعه في مهمة سريّة، إن لم يكن العكس.

ثانياً: أنّ طبيعة الإعداد لمهمّة فالين، وخلفيّات انتدابه في المهمة، وما

رُصد لها من منحة مالية... كلّ ذلك لم يكن حبّاً بسواد عيون بدو جزيرة العرب. بدليل أنه أنجز مهمة... استحقت أن يُكافأ الرجل من الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، وهي صاحبة اليد الطولى والتاريخ العريق في التخطيط للمهمات السريّة في المشرق الاسلامي.

ثالثاً: استعداده للعب دور العميل المزدوج، وعلى غرار ما يجري اليوم، واتفاقه مع وزارة الخارجية المصرية على تزويدها بالتقارير السريّة، عن الأوضاع السياسية، في شمال الجزيرة العربية.. هو توظيف ماكر لخدمة مهمته السريّة والتستر عليها، تحت هذا الغطاء المناسب.

رابعاً: ليس من المنطقي تكريم شخص يُرسل في مهمة خاصة خطيرة، ثم يعود وقد صبأ عن دينه، معتنقاً ديناً مغايراً بل معادياً، وفق الرؤية الأوروبية الباقية حتى اليوم. ولو كان فالين قد اعتنق الاسلام حقّاً لناله بعض ما ينال روجيه غارودي اليوم. وما نال ليوبولد فايس (محمد أسد) الذي تبرّأ منه حتىٰ أهله!

إنّ حكاية التظاهر باعتناق الاسلام كانت إحدى المستلزمات الضرورية والمفاتيح الأساسية لنجاح المهمات السرية الكبرىٰ والتعرّف على المشرق الاسلامي، عن كثب.

خامساً: لم ينبر للدفاع عن إسلام فالين ـ ما عدا الصحيفة العربية حسب علمنا ـ حتىٰ اولئك الذين يحسنون الظنّ بالاستشراق وينافحون عنه، كما هو الحال مع الأُستاذ نجيب العقيقي؛ صاحب موسوعة «المستشرقون» الذي لم يذكر ـ من قريب أو بعيد ـ قصّة إسلام فالين، بل لم يصنفه حتىٰ في خانة فئة المستشرقين التي أنصفت الاسلام، وإن لم تدن به، قولاً وعملاً وكتابةً، فضلاً عن ذكره الذين اعتنقوا الاسلام منهم، حسب رأيه، كبيركهارت ولم يشر الى فالين!

ورغم ذلك، فإنّ العقيقي ربما كان أميل الى الاتهام منه الى أي شيء

آخر، وذلك حين يقول عن فالين: «... رحل الى الشرق فطوّف، خلال ست سنوات، بمصر وجزيرة العرب وبغداد واصبهان وبصرىٰ ودمشق، متزيياً بزي البدو، متطبعاً بطباعهم، متسمّياً باسم عبدالولي... حاملاً حقيبة مملوءة بالعقاقير فأحبته القبائل ويسّرت له دراسة عاداتها ولهجاتها واستقصاء حالة بلادها الطبيعية والجغرافية»[٥٢].

سادساً: ثم ماذا يعني أن تكون صورته وهو في زي شيخ عربي ذي عمامة وقباء ونطاق ممّا يزين جامعة هلسنكي الى عهد قريب، ولعله لا يزال الى الآن؟[٥٣]

سابعاً: رغم ندرة التطرّق الى مهمة فالين، من قبل الكتّاب الغربيين، إلّا أنّ إشارة وردت في كتاب «الفارس العربي» للكاتب البريطاني «سيتون ديردون»، ساهمت في إزاحة بعض الستار عن حقيقة مهمّة فالين. يقول «ديدرون»، وهو يتحدّث عن الرحالة الانكليزي «بورتون»: «قبل أن يتوجه الى مهمته (التي تنطوي على الدخول الى جزيرة العرب والحجاز على الأخص، ومن ثم الوصول الى مكة المكرمة في موسم الحج للكتابة عنها بالتفصيل)، علم أنّ رحالة يدعىٰ «فالين Wallin» كان قد تمكن من الدخول الى مكة والحج مع الحجاج في ١٨٤٥، لكنه لم يستطع تدوين شيء عما فعل ورأىٰ؛ لأنه كان خائفاً على حياته، وخاصة بعد أن لاحظ أنّ اثنين من اليهود قد اكتشف أمرهما في مكة تلك السنة فقتلهما الحجاج الهائجون شنقاً، فقرر (أي بورتون) أن يستفسر منه عن أشياء كثيرة، قبل أن يقدم على الاضطلاع بمهمته، وكتب له بذلك، لكن كتابه لم يصل الى «فالين» إلّا بعد أن كان قد توفي...»[٥٤].

ونترك للقارئ اللبيب مهمة الاستنتاج عمّا يعني هذا التنسيق بين الرحالتين... وماذا يعني خوف فالين حينما افتضح أمر اليهوديين..؟! أَلا يكاد المريب أن يقول خذوني؟!

ثامناً: أنّ إصراره على اختراق

قلب جزيرة العرب يدلّ على أنّ مهمته السريّة لم تبلغ نهايتها. وظلّ يواصل المحاولة تلو الأخرىٰ لنيل مأربه والوصول الى هدفه. فقد عاد في آذار (مارس) ١٨٤٦ الى القاهرة، إلّا أنه لم يطل الإقامة فيها، بل غادرها في رحلة قصيرة الى فلسطين خلال كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٦ عاد بعدها الى القاهرة. لكن رحلته الأطول كانت الثالثة. ففي كانون الأول ١٨٤٧ غادر مصر عن طريق البحر الأحمر الى الشاطئ الغربي لجزيرة العرب[٥٥] وقطع جبال تبوك ثم اتجه الى حائل؛ لكي يحاول مرّة أخرىٰ الذهاب الى الرياض، لكن الامير طلال بن الرشيد الذي اكتشف حقيقة أمره نصحه بألّا يفعل، وهكذا اتجه صوب بغداد، لكنه بلغ البصرة مفلساً[٥٦] ليعود الى مصر عبر دمشق فبيروت، ثم عن طريق البحر الى الاسكندرية، ليصل القاهرة في حزيران (يونيو) ١٨٤٩. وأخيراً عاد الى الاسكندرية متوجهاً الى هلسنكي مروراً بلندن لتسلّم جائزة «الجمعية الجغرافية الملكية» سنة ١٨٥٠.

وحال وصوله فنلندا عين أستاذاً للغات الشرقية في جامعة هلسنكي. وشرع في الحال يخطط لرحلة جديدة الى الجزيرة العربية والتي أراد لها أن تستغرق ست سنوات.. لكنه توفي قبل أن ينهي الاستعدادات لذلك[٥٧] إذ مات في ٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٥٢، ولما يتم الحادية والأربعين من العمر.

آثاره.. ومذكراته.

ترك فالين آثاراً منها: أهم الفروق بين لهجات العرب المتأخرين والمتقدمين، ونشر تائية ابن الفارض ومطلعها: أو ميض برق... مع شرحها للشيخ عبدالغني النابلسي، وكان قد نسخها بخطه، بترجمة لاتينية وتعليق (هلسنكي ١٨٥٠). وله مذكرات محاضراته في الكلية. ومخطوطات عربية في مكتبتها. أما يومياته في الشرق، وهي في وصف ما رآه أيام إقامته في البلاد العربية، فقد طبعت بعد

وفاته، ووقعت في خمسة مجلدات[٥٨]، وقد أعيد في بيروت سنة ١٩٩٢ إصدار الطبعة الثانية من كتاب «صور من شمال جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر» التي قام بترجمتها سمير سليم شبلي، وكتب مقدمتها فاروق أبو شقرا أستاذ الدراسات العربية في جامعة هلسنكي.

الهوامش :

(١) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١١٥.
(٢) صحيفة الحياة؛ م. س.
(٣) المدينة في المراجع الغربية؛ م. س، ٣: ٢٤٣.
(٤) صحيفة الحياة؛ م. س
(٥) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١١٥
(٦) المدينة في المراجع الغربيّة؛ م. س، ٣: ٢٤٨.
(٧) المرجع السابق، ٣: ٢٥٠.
(٨) المرجع نفسه، ٣: ٢٥١.
(٩) صحيفة الحياة؛ م. س
(١٠) المدينة في المراجع الغربيّة؛ م. س، ٣: ٢٥٤.
(١١) المرجع نفسه، ٣: ٢٥٥.
(١٢) المرجع نفسه، ٣: ٢٥٧.
(١٣) لمزيد من الاطلاع يراجع الجزء الثالث من موسوعة العتبات المقدسة (قسم المدينة).
(١٤) صحيفة الحياة؛ م. س
(١٥) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١١٥.
(١٦) صحيفة الحياة؛ م. س
(١٧) المرجع نفسه.
(١٨) الاعلام للزركلي؛ م. س، ٨: ٢٦٨، والمستشرقون للعقيقي؛ م. س، ٢: ٥٢.
(١٩) كذلك.
(٢٠) نقلاً عن كتاب صورة العرب في الصحافة البريطانية؛ م. س: ٤٤ (هامش ٩٤).

(٢١) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٦١.

(٢٢) المرجع نفسه: ١١٦.

(٢٣) الاعلام؛ م. س، المستشرقون؛ م. س.

(٢٤) للمزيد من الاطلاع على ماكتبه الريحاني عن بيركهارت يراجع كتابه: «تأريخ نجد الحديث»، المنشور ضمن الأعمال العربية الكاملة للمؤلف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠: ٨٠ ـ ٨١. معلوم أنّ علامات الاستفهام ماتزال تطارد الريحاني حول علاقاته المشبوهة بالدوائر الدولية وأذنابها في المنطقة.. وإذا عُرفَ السبب بطل العجب!

(٢٥) صحيفة الحياة؛ م. س.

(٢٦) المستشرقون؛ م. س، ٢: ٥٢.

(٢٧) الأعلام؛ م. س.

(٢٨) المدينة في المراجع الغربيّة؛ م. س، ٣: ٢٦٤.

(٢٩) يُراجع «المُنجد في الأعلام» ط١٢، بيروت، ١٩٨٢. المطبعة الكاثوليكية.

(٣٠) المدينة في المراجع الغربيّة؛ م. س.

(٣١) الإستشراق لادوارد سعيد؛ م. س: ٢١٩.

(٣٢) مكّة في المراجع الغربية؛ م. س، ٢: ٢١٩.

(٣٣) الاعلام للزركلي؛ م. س ـ ٣: ٣٨.

(٣٤) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١١٦.

(٣٥) المرجع نفسه: ١١٧.

(٣٦) د. محمد ابراهيم الفيومي: «الاستشراق رسالة استعمار» القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٣م/١٤١٣هـ: ١٢١.

(٣٧) ابراهيم الحيدري: «صورة الشرق في عيون الغرب»، لندن، دار الساقي، ١٩٩٦م: ٥٥.

(٣٨) Botta P.E Jemen s. 14 - 19 1840. «نقلاً عن المرجع السابق: ٥٧، هامش رقم (٧٥).

(٣٩) سمير عطا الله: «قافلة الحبر: الرحالة الغربيون الى الجزيرة والخليج (١٧٦٢ ـ ١٩٥٠م)» لندن، دار الساقي، ١٩٩٤م: ٧٠ ـ ٧١.

(٤٠) أشار خير الدين الزركلي الى أنّ منْ نقلوا اسمه حرفياً سمّوه «جورج اوغست وليـن» والصـواب مـا ذكـره (فالين)، كما ينطقه الفنلنديون. يراجع الاعلام ـ ٢: ١٤٦، هامش (٢).

(٤١) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٣١.

(٤٢) مجلة الاستشراق (البغدادية)، العدد الثاني، شباط ١٩٨٧م: ٩٥، ولعل فالين أول من طرق باب اللهجة العامية مقارنة باللغة الفصحىٰ.

(٤٣) يُراجع الاعلام للزركلي؛ ٣: ١٤٦، وموسوعة «المستشرقون»، لنجيب العقيقي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥م، الجزء الثالث: ١٠٤٠.

(٤٤) يُراجع مجلة الاستشراق؛ م. س، وكتاب «قافلة الحبر»؛ م. س: ٧٢.

(٤٥) صحيفة الحياة (طبعة لندن) ـ الاثنين ٦ نيسان (ابريل) ١٩٩٢م الموافق ٤ شوال ١٤١٢هـ. العدد (١٠٦٥٠) ـ: ١٧ (تراث).

(٤٦) قافلة الحبر؛ م. س: ٧٢.

(٤٧) مجلة الاستشراق؛ م. س: ٩٥.

(٤٨) الاعلام للزركلي؛ م. س ـ ٢: ١٤٦.

(٤٩) قافلة الحبر؛ م. س: ٧٢.

(٥٠) بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٣٣.

(٥١) صحيفة الحياة؛ م. س.

(٥٢) المستشرقون للعقيقي؛ م. س ـ ٣: ١٠٤٠.

(٥٣) الاعلام للزركلي؛ م. س ـ ٢: ١٤٧.

(٥٤) Deardon Seaton _ The Arabian Knight A Study of Sir Richard Burton, London 1953.

«نقلاً عن موسوعة «العتبات المقدسة ـ قسم مكة، للمرحوم جعفر الخليلي، ط ٢، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م: ٢٩٥، هامش (١).

أما «بيتر برينت» فحين تساءل حول عمّا إذا قام فالين بشعائر الحج أم لا... عقّب قائلاً: «لكنه ـ أي فالين ـ لا يذكر شيئاً عن مناسك الحج، ويبدو أنّ مرضه قد أقعده ومنعه عن القيام بذلك. وإذا فعل ذلك فلم يستطع تسجيله في ملاحظاته، إذ كان كل ما يرغب فيه الآن هو مغادرة شبه الجزيرة» ـ يُنظر كتابه «بلاد العرب القاصية»، م. س: ١٣٣.

(٥٥) صحيفة الحياة: م. س.

(٥٦) قافلة الحبر؛ م. س: ٧٢.

(٥٧) مجلة الاستشراق؛ م. س، وقافلة الحبر؛ م. س.

(٥٨) الاعلام للزركلي؛ م. س ـ ٢: ١٤٧، والمستشرقون للعقيقي؛ م. س ـ ٣: ١٠٤١.